# الولد الأكبر

الفريد ادلر من السيكلوجيين العصريين الذين عنوا أكبر العناية بالسنين الأولى لحياة الانسان أى سنى الطفولة وأثرها فى مستقبله من حيث نجاحه أو خيبته ، وتقدمه أو تخلفه وتقرير أخلاقه التى سيعيش بها حتى فى سن الشيخوخة . وكان من أكبر ما التفت اليه وأولاه دراسة خاصة موضوع الطفل البكر ثم مكان الطفل بين إخوته من حيث من يكبره ومن يصغره من الأولاد المحبوبين أو المكروهين . فهو حين كان يجد أحد الأشخاص يشكو عقدة أخلاقية كان يسأله عن ترتيبه بين أخوته : هو هو أكبرهم ؟ هل هو أصغرهم ؟ هل سبقته بنات أو بنون ؟ ومن أعقبه بعد ذلك ؟

وهذا لأن أدلر يرى أننا فى السنين الخمس أو الست الأولى نعتنق أسلوبا من الأخلاق يلازمنا مدى الحياة . فاذا كنا قد نشأنا على الحب والتعاون فى هذا الوسط العائلى الأول فاننا ندخل المجتمع ونحن نعامل أفراده بهذا الاسلوب . وإذا كنا قد نشأنا على الحسد والبغض والانتقام فإننا ننمو ونشب على هذا الاسلوب حين نعامل أفراد المجتمع . وقد يستطيع بعضنا بجهود عظيم أن يغير من هذا الاسلوب بعد أن يرى نتائجه السيئة تتكرر ، ولكن معظمنا ليس له من الذكاء أو من الهمة ما يبعثه على هذا التغيير فيبقى بأخلاقه الأولى طفلا كبيرا ولو بلغ الخمسين أو الستين من العمر .

وموضوع " الولد الأكبر " من الموضوعات التى يجب أن نعنى بها فى مصر . وعبارة " الولد الأكبر " تعنى عند أدلر أكثر مما نفهم من هاتين اللفظتين . فان أدلر يقصد بهذه العبارة كل ولد ميزه أبواه على سائر إخوته وحاباه أو دلاه . فنحن نعرف مثلا أن الزوجين يشغفان بالولد البكر سواء أكان أبنا أم بنتا اذ هو يستأثر بحبهما بلا مزاحم فالأم توليه عنايتها كلها والأب يجد فيه ما يشبع شوقه إلى الأولاد . ولكن هناك أيضا أولادا ليست لهم ميزة الأولية من حيث الميلاد ولكنهم يعاملون معاملة الولد البكر لميزات تجعلهم فى مكانته ، فقد يحدث أن تلد الأم أربع بنات متواليات ثم تلد ولدا ذكرا بعد اشتياق طويل الى الصبيان ، فيحظى هذا الصبى من المحاباة والعطف الخاص بمثل ما يحظى بمثله إخواته البنات الكبار . أو يحدث أن تلد الأم بنتا بعد ذكور ، أو ولداً وسيما يأتى بعد أولاد ليست لهم وسامته . فان كل هؤلاء يمتازون عندئذ بميزة الولد البكر ، فيمثون الحسد والغيظ والكراهية فى نفوس

إخوتهم الآخرين لأنهم يتمتعون فى معاملة الأبوين بنصيب لا يتمتع أولئك بمثله ، بيد أن هناك أضرارا أخرى تعود على الولد الممتاز أو " البكر " كما يسميه آدلر ، وهى أفدح من الأضرار التى تعود على إخوته غير الممتازين . فان هذا الولد لفرط ما لقى من حب والديه ومبادرتهما الى تلبية رغباته يصير أنانيا طماعا متلافا لا تنتهى مطالبه التى لا تكلفه غير الأمر ينطق به فيطاع .

ثم إنه يسرع إلى الغضب حين لا يجد التلبية العاجلة لأوامره لأنه لم يتعود رفضا ولا مقاومة كما لم يتعود الاشتراك مع إخوته فى متع البيت وطرائفه . وهو لا يعرف كيف يتعاون مع إخوته لأنه تعلم من أبويه أن يلاعباه كما يهوى لا كما يهويان . فهو يستبد فى اللعب ويجهل الروح الرياضى فلا يقبل الهزيمة راضيا بل يصخب ويفسد كل لعبة يلعبها مع إخوته إذا لم يكن له فيها مكان ممتاز . ثم هو لا يطيق الخضوع لأنه إنما تعود أن يرى أبويه يخضعان له ولم يتعود أن يخضع لهما . وهذه الحالة تلصق به وتنقلب عذابا له ولأبويه وللمعلم عند ما يشب ويدخل فى طور التلمذة إذ يعصى الجميع ويرفض الخضوع لأحد . وهو بعد ذلك يكره بذل المجهود ويرى نفسه مظلوما عند ما يكلف ذلك فيثور ويصخب لأى عنت أو عناء وأعجب من ذلك أن هذا الولد البكر ينتهى الى أن يكره أبويه . لأن هذين الأبوين بعد خمس أو ست سنوات من المحاباة والتدليل يريان أن من حق هذا الولد عليهما أن يربى ويعلم بل من حق إخوته أيضا أن يستووا به فى الحقوق والواجبات . وعندئذ يخشوشن كل منهما نحوه ويجد هو هذا الاخشيشان جديدا ، طارئا لا معنى له . وقد يكون محقا فى هذا ، إذ أنه لم يتغير فى أسلوب الحياة الذى ألفه وإنما الذى تغير أبواه ، وعندئذ لا يكون غريبا منه أن يكرههما لهذا التغيير . وقد يستطيع أبواه إذا كانا على شىء من الذكاء والتبصر أن يصلحا فى أمره بعض الشىء ، وأن يعلماه أسلوبا أخلاقيا جديدا . ولكن النجاح ليس مرجحا فى مثل هذا الاصلاح المتأخر .

والنتيجة لهذا الأسلوب الذى يعوده " الولد البكر " فى سنيه الخمس أو الست الأولى أنه يرسخ فيه إلى سن الرجولة ، ومن هؤلاء ستكون رجال ونساء أنانيون نزقون سريعو الغضب يكرهون التعاون مع المجتمع ، فنرى فيهم الزوجة التى تبرع فى مخاصمة زوجها ولا تحسن مصالحته ، والزوج الذى يحب أن يجند أعضاء البيت كلهم لخدمته كأن ليس فى البيت أحد سواه ، والتلميذ الكسول الذى يرفض بذل المجهود فى المدرسة ثم فى المكتب أو فى المصنع ، والموظف الذى يأبى الخضوع لرئيسه وينفر من أوامره ويثور عليه كأنه أحد أبويه يعامله بمثل ذلك الأسلوب الذى عاملهما به أيام طفولته ، بل تجد فيهم أحيانا ما هو أفدح وأفظع من هذا ، نجد المجرم الذى لم يستطع التعاون مع المجتمع ولم يستطع الانتظام فى عمل كاسب

يقتضيه الخضوع والمواظبة والمجهود ، فهو يعمد إلى العنف والبطش بأعضاء هذا المجتمع كما كان يعمد إلى الصراخ والصخب والثورة على أبويه أيام طفولته ، ويجب ألا يفوتنا أن الجريمة هى ردة إلى الطفولة ، وإذا لم يكن السجن هو آخر المراحل السيئة للولد المدلل فقد يكون المارستان آخر هذه المراحل ، لأن الجريمة هى انفجار بعد كظم ، والجنون هو كظم بالغ لا تطيقه النفس الإنسانية .

ولسنا نقول إن كل تدليل يؤدى إلى هذا المصير السيئ لأن من حسن الحظ أن الأبوين يريان ويحسان هذا السلوك السيء الذى اعتاده طفلهما فيحاولان تغييره باللين والاقناع وأحيانا بالعنف والشدة . بل إن من حسن حظ الطفل نفسه أن له أخوة لا ينظرون إليه نظرة أبويه وإنما يعاملونه بالمساواة وفى نزاهة تؤذيه أولا وتنفعه أخيرا ، فهو يتعلم منهم دروسا لم يتعلم مثلها من أبويه ويأخذ منهم فضائل فى معاملة المجتمع تعوضه فى أكثر الأحيان عن الرذائل التى تعلمها بالمحاباة والتدليل من أبويه . أما إذا لم يكن له أخوة فان المرجح أن ينشأ أسوأ نشأة ، فلا يعرف كيف يعامل زوجته أو خادمه أو أولاده أو سائر أفراد المجتمع . فيجب علينا أن نفتح أعيننا لهذه الحال وأن نعامل أطفالنا بالمساواة التامة لا نميز الابن عن البنت ولا الولد الأكبر على سائر إخوته ولا الولد الوسيم على أخيه الدميم ، لأن مثل هذه العواطف التى نرسلها إرسالا بلا ضابط تؤذى الأولاد فى مستقبلهم وتعود عليهم بالضرر الفادح . والبيت هو القالب الذى تصب فيه أخلاق الطفل الأولى ، وبعيد جدا أن تتغير هذه الأخلاق فى المستقبل .